تقنيات التضايف الأدبي و الإيديولوجي
في رواية "كتاب الأمير" لواسيني الأعرج

الأستاذ الدكتور محمد تحريشي / والأستاذ محمد مرين
جامعة بشار ـ الجزائر

إن رواية "كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد" للروائي "واسيني الأعرج" نص أدبي مثير للقراءة، و هو نص مفتوح على التأويلات المتنوعة بتنوع تضايف أبعاده الجمـــالية و المعرفية و الفكرية، حيث يتقاطع فيه البعد الأدبي كونه نصا سرديا يوظف جمالية المستويات اللغوية مع البعد التاريخي بوصفه رواية تتناول حياة الأمير عبد القـــادر و مقاومته مع البعد الإيديولوجي وهو يقدم رؤية السارد المفتوحة على تأويل القراءة.

إن القراءة في تفاعلها مع بنية النص اللغوية و غوصها في بنيته العميقة تعيد إنتاج النص محاولة فهم مقصديته الدلالية من خلال ما تحمله جزئيات النص وعلاقاتها الداخلية وفق فنيات التقاطب والتنافر ، وتقدم بذلك اختيارات السارد الأدبية و الدلالية بوصفها منظورا يلخص البعدين الأدبي و الإيديولوجي، و فهم هذا التضايف بينهما يملأ الفراغات التي تركها النص و يفتح المحكي على استنطاق المسكوت عنه.

إن الأدبي يرتبط بما هو دراسة أدبية للنص لكشف فنياته الجمالية كونه شكلا لغويا من خلال توظيف اللغة لإظهار صورة تعبيرية تعطي للنص ملامحه الخاصة، و من خلال توظيف الفنيات السردية التي تشكل جسم الحكاية، أما الإيديولوجي فهو يتعلق بالبنية الفكرية للنص و بمجمل الأفكار التي يقدمها السارد محمولة في الصيغ اللغـــوية و مستوياتها منصهرة في الفنيات الجمالية، ويقدمها على أنها وعي سياسي و اجتماعي بغض النظر عن اتفاقنا و اختلافنا مع رؤيته، لأن تأويل القراءة لا يخلو كذلك من بعد إيديولوجي يتلخص في اختيارات التأويل، والإشكالية التي يضعها التضايف الأدبـــي و الإيديولوجي هو قدرة الإبقاء على سلطة و هيمنة الخطاب الأدبي بوصفه الخطاب الحامل للأبعاد الأخرى، باعتبار أن العملية الأدبية "تقوم بعملية ترجمة جديدة لتلك الكتلة الأولية: التاريخ، الواقع، الفكر العام، التي ينحت منها المبدع إبداعه"[1].

إن المضمون السردي لرواية الأمير هو تناول مراحل حياة الأمير عد القادر و مقاومته من البيعة إلى النفي، واختيار السارد لهذه الفترة لأنها تمثل إشكالية العلاقة بين الذات "الأمير و المقاومة" و الآخر، و الآخر له وجهان الأول في علاقة تناظر و تنافر "جيش الاحتلال" و الثاني في حالة تقاطب لرمزية الحوار و التواصل التي يمثلها و يجسدها في الرواية "مونسنيور ديبوش" و هو رجل دين مسيحي يتواصل مع الأمير و يعمل على التعاون معه سواء في تسوية أوضاع إنسانية مثل وضع المساجين و الأسرى من الطرفين أو في تنفيذ تعهدات توقيف الحرب خصوصا من الجانب الفرنسي.

إن الشكل الفني الذي استعمله "واسيني" هو التنويع في المستويات اللغوية و الفنيات الجمالية و هو ما عُرف به، موزعا روايته على أبواب و كل باب على وقفات سردية "باب المحن، باب أقواس الحكمة، باب المسالك والمهالك" مستلهما التبويب التراثي التصوفي الذي عُرف به الأمير، مستفيدا من مقاطع سردية مدمجة من خلال المراسلات و النصوص التاريخية مثل رسالة الأمير للبيعة أو مقاطع من كتاب "وشاح الكتائب" الذي يلخص رؤية الأمير العسكرية، و هذه النزعة التاريخية ترسّخت بحضور التأريـــخ و التوثيق و هذا لتقديم رؤية فكرية تستند على تجربة تاريخية فعلية و إن كانت تصوّب منظورها إلى المعاصر و المستقبل.

يتردّد السارد زمنيا على مدى 538 صفحة بين المقاومة و مسارها و بين تواصلات" ديبوش" و مجهوداته مع الأمير، و كأن "واسيني" يحرص على رؤية تحتفظ بالخطين السرديين متسايرين خط التنافر "مقاومة، احتلال" و خط التقاطب "الأمير، ديبوش" و من خلال هذين الخطين تشتغل اللغة السردية المتميزة، تنتقل بين الوصف و الحدث و الحوار و تحرك الشخوص في المكان والزمان بلغة تميز بها "واسيني" في أعمال سابقة"بنيت بعض نصوص واسيني على ثالوث يكاد يشكل تيمة مميزة تمثل عصب العمل الإبداعي فالشخصيات منها الإيجابي و منها السلبي و ما بينهما المتعاطف ثم هناك توظيف لفن من الفنون، و يبدو أن واسيني بذل جهدا كبيرا في سبيل تطويع لغة الفن حتى تصبح لغة روائية... بلغة بسيطة مفهومة و مناسبة... و تقابلها لغة تتأرجح بين العامية

الفصـــحى و هي أقرب من لغة المحكي اليومي و المتداول المستعمل المألوف"[2] ولم تختلف رواية "الأمير"عن غيرها ، فتعدّدت الشخصيات بين شخصيات المقاومة "الأمير ،المعاونون المقاومون ..." و شخصيات الاحتلال"قادة الاحتلال، المتواطئون، المتمردون..."وبينهما شخصية"ديبوش" من جهة و العرش الملكي من جهة أخرى،وتنوعت المستويات اللغوية في استعمال اللغة الدارجة والمستعمل الشعبي بما فيها أغان شعبية، كما اللغة الفنية في وصف زيارة الأمير للأوبرا و المتحف في منفاه بباريس ووصف مارآه. و جاءت هذه اللغة مفعمة بالقيم الإيديولوجية التي أراد السارد أن يقدم بها وعيا فكريا متجاوزا المباشرة، حيث تُمثل هذه القيم عناوين إنسانية، فحضور الإنسان في خضم الصراع بين الذات و الآخر و تجسد هذا الحضور في قيم"الحوار، التسامح، السلام، حقوق الأسرى..." و كلها قيم تتمحور حولها خطابات و حركة شخصيتي "الأمير، ديبوش" ضمن تقاطب لغوي مشترك وفي حوار بينهما "...الإنسانية يا سيدي عبد القادر استحقاق و ليس إرثا سهلا.

ـ معك حق الاستحقاق يحتاج إلى مجهودات دائمة للوصول إلى تحقيقه"[3] وهذه المجهودات في الانتصار للإنسان كانت في تناظر مع واقع معاكس قدّمه الخطاب السردي في الرواية ضمن أحداث و خطابات مضادة مثل حادثة الإحراق في جبال "الظاهرة" و هي مجزرة بشعة قام بها القائد العسكري"بليسي" "مُلئت المداخل بالزيوت و الزفت ثم أُشعلت النيران وعلت ألسنتها في كل مكان حتى الصخور متوغلة في أعماق المغارات... عندما فتحت

المغارات، كانت الجثث ملتصقة بالصخور، نساء، رجال، أطفال، بهائم محروقة"[4] وهذه المجهودات تكللت بإنجاز معاهدة توقيف المواجهة واعتراف العدو بالأمير بكونه خصما شريفا قاوم باحترام أخلاق الحرب.

إن العقلانية كانت إحدى الرسائل المشفرة التي تضمنها الخطاب السردي للرواية الذي رسَّخ اختيارات السارد في إعادة صياغة الحادثة التاريخية، من خلال وصف المجتمع الجزائري الغارق في التخلف "الصراع القبلي، سيطرة الخرافة، غياب الدولة، الجهل..." و تقديم الوجه العقلاني للأمير بداية من اختيار قراءات الأمير الأهم بالنسبة للسارد "ابن خلدون، التوحيدي، ابن عربي، حمدان خوجة" و هي كتابات ذات نزعة عقلانية و صوفية فسرت حركة مجتمعاتها كما يسعى السارد إلى نفسير إشكاليات المجتمع و الدولة من خلال تجربة الأمير عبد القادر، إلى تقديم مبررات توقيف الحرب سواء من خلال حركة الأحداث وتحولاتها أو من خلال خطاب شخصية الأمير في الرواية فتحولات الأحداث من حشد المقاومة و معاركها الكبرى ثم الاضطراب و التحول السردي إلى واقع إنهاء المواجهة و المفاوضات مع العدو لاحقا و النفي إلى قصر "أمبواز" ليتم الترحيل ،و أحداث انفضاض القبائل و صراعها، و الدور السلبي للعرش الملكي المغربي، و ضعف التسلح،كلها سجلت ركائز فكرية قدمها النص الروائي على أنها مقدمات للتحول السردي، اختزلها أحيانا في خطابات سردية قصيرة كقول الأمير"لقد حاربتهم و سوُدت معيشتهم و عندما تخلى عني أهلي، طلبت من سلطان المغرب مساعدتي فباع رأسي للأعداء، اليوم لم يعد لي ما أقدمه لهذه

الأرض لقد انتهت خمس عشرة سنة أنهكتني عن آخري بالنسبة للرغبة في السلطان فقد غسلت يدي بالماء و الصابون، لم يعد يعنيني مطلقا"[5] فاعتماد الخطاب الحواري لاختزال المقاطع السردية لتقديم رؤية عقلانية في إشكالية المواجهة و شروطـها، و هي فنية يستعملها السارد لتلخيص المراحل السردية ويدعم خطاب الحوار خطاب السارد لتأكيد هذا التوجه وتبريره في وصفه لشعور الأمير "شعر الأمير بأن ما كان يحدث أمام عينيه كان مذهلا و كبيرا و عرف لماذا خسر حربه الأخيرة، العالم كان يتغير بعمق و سرعة، لم يعد السيف والشجاعة يكفيان، فالمدافع الضخمة و الآلات السريعة و السفن و العوامات التجارية... و الجيـوش المجهـزة

والمنظمة غيَّرت كل الموازن"[6] ومع كل هذا الزخم في الأحداث و حركة الشـخـوص و ضغط التاريخي في النص فإن شعرية اللغة " الواسينية" حاضرة خصوصا في محطات الوصف التي كانت تُشكل محطات استراحة في معمار النص لمعاودة الاندماج مع الأحداث و إن كان هذا الوصف للشخوص أو المكان أو الزمان منسجما مع سير الأحداث و تحولاتها و جزءا من المشهد السردي.

إن هيمنة الخطاب الأدبي في هذا العمل واضحة يتوارى ضمنها السياق الإيديولوجي ضمن بلاغة للطمس تشتغل على المسكوت عنه و على فنيات لغوية جمالية تشتغل على فنيات التقاطب و التنافر بين جزئياتها اللغوية و الدلالية، و هذا اتجاه يحرص عليه الروائي "واسيني" في تجربته الإبداعية عاملا على إنقاذ

النص السردي من الأدلجة المباشرة الفجة نحو كتابة تنتصر للأدب " الكتابة العظيمة وحدها هي التي امتلكت القدرة على تذويب الجسم الصلب للإيديولوجية و سبكته بحرفية ليصبح جزءا حيويا من نظام الكلي و الإنساني".[7]

فنيات التضايف بين الأدبي و الإيديولوجي :

إن واسيني لم يقدم القيم الإيديولوجية التي دافع عنها مستقلة عن الخطاب اللغوي السردي ، و لكنه قدمها محتواة في خطابه السردي ضمن دلالاتها، مستخدما فنيات للتضايف المشترك بيع البعدين الأدبي و الإيديولوجي لأنه لا يمكن الفصل بينهما ، و ذلك لطبيعة اللغة والدلالة حيث "إن المعنى المطلوب يتوزع في نسق اللغة الروائية ، و يتشتت في العلامات عند مفترق الأحداث التي تولى السرد بناءها و إعادة صوغها ، يعيد للواقع نظارته المفقودة في نثر الأيام"8 فينطوي النص على القيم الإيديولوجية في معانيه العميقة التي لا تظهر على سطحه، فيبقى عرش النص متعال عن لغة التبشير الإيديولوجي المباشر ليحافظ على خصائص الكتابة الأدبية التي تميز النص الإبداعي عن غيره من النصوص ، و تفرض سلطته و هيمنته على أبعاد بنيته الدلالية بما فيها البعد الإيديولوجي "الكتابة العظيمة وحدها هي التي امتلكت القدرة على تذويب الجسم الصلب للإيديولوجية و سبكته بحرفية ليصبح جزءا حيويا من نظام الكلي والإنساني"[9]فيصبح نظام النص ، بحكم مستوياته الدلالية مسكونا بالغموض

والفراغات ، فيعطي لعرش النص البروز و المظهرية بما يجعله مغلقا لغـويا و مفتوحا دلاليا، لتقوم القراءة بدور التأويل و إعادة إنتاج النص...

إن رواية " كتاب الأمير"عملت على إنقاذ عرش نصها من وحل الخطاب الإيديولوجي فلجأت إلى مجموعة من الفنيات السردية التي كست النص بجمالية لغوية انتصرت للبعد الأدبي الذي احتوى و ضايف البعد الإيديولوجي دون الإخلال بهيمنة خطابه و جماليته الفنية، و ما يميز هذه الفنيات عند" واسيني" في روايته هو تنوعها ، بما أعطاه مساحة من الاختيارات الفنية جعلته بمنأى عن التكرار، كما حملت هذه الفنيات أوجها من التجديد و محاولة اختراق النمط السردي العربي .

إن فنيات هذا التضايف بين الأدبي و الإيديولوجي في رواية "كتاب الأمير" يضع مخارج لإشكالية الحضور الإيديولوجي في الأدب الجزائري ، كان في مرحلة ما ،يثقل كاهل الإبداع الأدبي ويشوش على أدبية النصوص السردية ، إن هذه الفنيات تؤسس لآفاق جديدة يتحرر بها السرد من الخطاب الإيديولوجي الفج، و يرسخ الاتجاه الأدبي للإبداع .

بلاغة الطمس:

إن المثل التي ظهرت سرديا في رواية "كتاب الأمير " من خلال خطاب الشخصيتين المحوريتين في عرش النص ، شخصية "الأمير" و شخصية "ديبوش" ألقت بظلالها على فراغات النص حيث تكون القراءة بإنتاج

التأويلات التي تستنطق المسكوت عنه ، إن هذه القراءة التي تختزل اختيارات القارئ تنطلق من الأدبي نحو بعد إيديولوجي ، يطرح إشكالية التعامل مع بلاغة الطمس التي يتفاعل فيها مع تأويل اللامقول .

إن قراءة المسكوت عنه تقدم تأويلات من اختيار القارئ تمثل وعيا للقراءة بمنظور لا يُلزم المبدع ، فكما للكاتب حرية اختيار أدواته الفنية في الكتابة ، فالقارئ له حرية اختيار تأويلاته خصوصا في الفراغات التي يتركها النص .

إن تفاعل الاختيارين هو الذي يجعل من النص محور بناء الوعي الذي يشكل صلب البعد الإيديولوجي و سواء أكان وعيا حقيقيا أو زائفا، فهو يختزل رؤية فكرية من زاوية الكتابة أو من زاوية القراءة، و تظهر ذروة هذه البلاغة في إشكالية تأويل المسكوت عنه ، كالتأويل الذي ينطلق من رؤية التطابق بين " الآخر و الاحتلال" فهل العلاقة مع الاحتلال هي ذاتها العلاقة مع الآخر" و لكن بلاغة الطمس تقدم لنا عالما تسكنه اليوتوبيا التي تنشد واقعا ينسجه الحلم ببناء عالم يسوده التسامح و التآخي و القيم الأخلاقية الإنسانية، إن الحدود بين الخير و الشر تطمسها هذه البلاغة مما تجعل القارئ في مواطن كثيرة يعتقد بأن هذا الخطاب يسبح في ملكوت اليوتوبيا ، و نحن نحدد جغرافيا بلاغة الطمس في الفراغات و البياض الذي يسكن كتاب الأمير" 0[1] فالمثل التي تحكم العلاقة بالآخر : التسامح ، الحوار، السلام الاحترام ، ...عندما تعمم على الاحتلال ، تخلف شيئا من التشويش من حيث بناء وعي إيديولوجي يمسح فروقا بين السلام

و التطبيع ،و هو موقف معرض للنقد و محكوم بالجدل تاريخيا و فكريا خصوصا عندما تكون القراءة تستند إلى تأييد إيديولوجي عندما تعمم قيم العلاقة مع الآخر إلى حالة الاحتلال ، دون مراعاة القيم الأخرى التي يقدمها السرد كإظهار بشاعة الاحتلال و إدانته و تثمين مقاومته ... مما يجعل مثل هذه القراءة تبتعد عن جوهر الوعي الذي تريد المبالغة السردية أن تقوله و هو إعلاء هذه القيم بمعزل عن ضغط التاريخي في الرواية.

إن استحضار تلك الاختيارات التي تحدثنا عنها في المباحث السابقة ، والتي تختزل البعد الإيديولوجي المضايف أدبيا ، يقابلها اختيارات ضاعت في فراغات الرواية و متاهات الصمت بين ثنايا السرد لتشكيل محفزا للقراءة على التأويل ، وإذا كانت الاختيارات الانتقائية هي التي تشكل ملامح البنية الفكرية فان الاختيارات المزاحة أو المهملة هي كذلك تفتح آفاق التأويل الذي يكشف تضايف البعدين .

إن من الأمثلة التي يمكن سياقها من خلال شخصيات الرواية ، حيث "اعتنت النصوص الروائية برسم الشخصيات ، لأنها الحامل الإيديولوجي الأول ، كما أن الإنسان منطلق الرواية و غايتها ، فهو الوسيلة المثلى لنقل الخطاب "11

_ اختيار " القس مونسنيور ديبوش" لتقديم شخصية دينية مسيحية ايجابية ، تبذل مجهودات في التعاون مع الأمير نحو مساع إنسانية ، في مقابل حركة التبشير التي صاحبت الاحتلال و عملت على تبريره .

_ اختيار " ابن دوران " اليهودي أحد معاوني الأمير، وإظهار مزاياه، في مقابل و جود يهودي لم يكن متجاوبا مع القضايا الوطنية إن لم يكن متآمرا، وفي مواجهة إشكاليات المعاصر حيث تسيطر فلسفة تجريم معاداة السامية ووجود الحركة الصهيونية اليهودية.

_ اختيار الشخصيات المذكرة في مقابل إزاحة الشخصيات المؤنثة ، وذكورية الشخصيات في رواية "كتاب الأمير" من الاختيارات التي تظهر على مستوى الخطاب وتستدعي التأويل على مستوى المسكوت عنه .

إن المقابلات بين الاختيارات المنتقاة و الاختيارات المزاحة تترك فراغات تعمل القراءة على شغلها ، وكلما كانت القراءة متنافرة مع إيديولوجية النص كان التأويل متنافرا مع مقصدية الرواية .

بلاغة الخطاب:

يعمل الحوار في رواية "كتاب الأمير" في إظهار البعد الإيديولوجي ، فيما يخفت هذا البعد في الوصف ،مما جعله يتوارى خلف لغة الشخصيات اللغوية ، و هذه الفنية أعطت للنص السردي سلطة عليا بنظامه على حساب الخطاب الإيديولوجي المحض ، بما شكل تضايفا جعل الايدولوجيا زائرا و ضيفا في حضرة النص و ليست صلب بنيته .

إن "واسيني" ضمّن الحوار مجموعة من القضايا المختلفة ، بعضها خارج سياق تسلسل الأحداث من خلال طرح قضايا فكرية أو اجتماعية مما جعل الجمل الحوارية تمتد في كثير من الأحيان إلى فقرات و لعدة اسطر كالحوار بين" الأمير"و "بواسوني " الذي كان يزوره في أمبواز لتدوين كتابه "تنبيه الغافل " " _ هل نواصل ، قال بواسوني وهو يبحث عن قلمه .

- نواصل .

- تحدثنا في الباب الأول في العلم و الجهل و عرفنا أن على العاقل أن ينظر في القول ولا ينظر إلى قائله ، فان كان القول حقا قبله ، سواء كان قائله معروفا بالحق أو الباطل فالعاقل يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال ، وذهبنا في تعريف العقل أنه منبع العلم و أساسه و مطلعه ، فقوة العقل هي إحدى القوى الأربع التي إذا اعتدلت في الإنسان كان إنسانا كاملا وهي قوة العقل و قوة الشجاعة و قوة العفة و قوة العدل و أنهينا الباب الأول بخاتمة."12 وهكذا استعمل " واسيني " الحوار لدمج مجموعة من المواقف الفكرية أحيانا بفنية التناص ، ففي المثال السابق تظهر النزعة العقلانية للأمير من خلال كتابه " تنبيه الغافل " و الروائي حريص على أن تحوي الفنيات الأدبية مضمونا فكريا يتعلق بالوعي .

وفي موقف آخر بين "الأمير " و أحد مرافقيه "_و لكن يا أمير المؤمنين أن نسلم أنفسنا للنصارى فنحن نعرف ماذا فعلوا بأرض الإسلام ؟ألا يوجد مسلك

آخر غير هذا نحن بين مولاي عبد الرحمن و العودة له و طلب الصفح منه و بين الفرنسيين.

- يمكنكم أن تختاروا فيما يخصني فقد اخترت و انتهى أمري أفضل أن أسلم لعدو حاربته ،و انتصرت عليه في كثير من المعارك و قبلت هزائمه ، على أن أقدم رأسي لمسلم وقت الشدة "13، وهو موقف يختزل اختيارا للأمير في نهاية مواجهته ، وقد ضاقت به السبل ، متضمنا تبريرا لذلك الموقف .

يعمل "واسيني" على تقديم أفكاره و مواقفه من خلال خطاب شخصياته ، و لكن أحيانا كان يقدم خطابه من خلال الوصف ليرسخ تلك القيم التي جهد على تبليغها كقوله" رد الأمير و هو يرمي بصره بعيدا بين البنايات الدراسية الضخمة ، و السيارات التي كانت تملأ الشوارع النظيفة بحركتها و ضجيجها و الناس وهم يسيرون بانتظام في الحدائق المحيطة بالمدينة ، العالم كان يتغير بسرعة كبيرة.... فقد أدرك أن شيئا ما كان يسير بسرعة غير اعتيادية ... رأى سيوفه البراقة التي لم تكن كافية لمقاومة لم تعد البطولة و القصائد تنفع فيه كثيرا"14، إن الخطاب داخل النص لم يكن دائما محملا بذلك التوافق المطلق بين السارد و شخصيته ، ولم تكن الشخصية دائما حاملة للبعد الإيديولوجي للروائي ، بل أحيانا يكون الخطاب تاريخيا يتعلق بالمحكي ، وإيراده يعبر أدبيا عن قدرة "واسيني" على التحرر من فرض نفسه على شخصيته الروائية ، ويقدم سياقها التاريخي والفكري بأمانة واحترام ، مثل إيراد "صك البيعة" و دمجه ضمن النص " باسم الله

الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد ، الذي لا نبي بعده ، ... وقد قبلت بيعتهم و طاعتهم كما قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه مؤملا إن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين وإزالة النزاع و الخصام من بينهم و تأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة و حماية البلاد من العدو الذي غزا أرضنا وهو يهدف للسيطرة علينا و كشرط لقبولي فرضت علي أولئك الذين عهدوا إلي بالسلطة العليا ، واجب الامتثال دائما في جميع أعمالهم إلى تعاليم الشريعة المقدسة و كتاب الله وأن يقيموا العدل على هدي سيرة الرسول بأمانة و تجرد على القوي والضعيف ، الشريف و المشروف ، وقد ارتضوا بهذا الشرط . أدعوكم إذن لتحضروا إلينا لتقدموا بيعتكم و تظهروا طاعتكم وفقكم الله و أرشدكم في الدنيا والآخرة ... حرر بأمر من ناصر الدين السلطان وأمير المؤمنين عبد القادر ابن محي الدين ..."15 ودمج صك عقد البيعة ووصف ظروف إجرائها بما يخدم جمالية السرد ، ويستحضر أجواء المحكي ، وفي سياق إنتاج النص حيث يشهد جدلا فبناء الوعي الإسلامي حول ثقافة الدولة و تشكيل السلطة ، يعيد الإشكاليات الإيديولوجية "الديني _السياسي " " الدولة _ السلطة " " السيادة _ الشعب "...

إننا إذا أضفنا لهذه الفنيات الكم اللغوي من المفردات أو الجمل السردية التي تضمنت هذا البعد الإيديولوجي يتضح إلينا ذلك التضايف بين الأدبي و الإيديولوجي بشكل يجعل نظام النص يحتوي تلك النزعة الإيديولوجية دون ابتدال أو على حساب اللغة الأدبية للسارد ،و التوجه الإيديولوجي في الرواية هو توجه

إنساني بعيد عن ذلك التوجه الحزبي الضيق بما يعطي للنص الأدبي عنفوانه ، و للغة السردية حضورها و هذا ما يقره "واسيني" نفسه ننتمي إلى جيل" كان يظن إلى وقت قريب أن الإيديولوجية هي الحل لكل شيء و كنا نستشهد بماركس و انجلز و لينين و ستالين ... و الكثير من المثقفين العرب أدرك ضعف الخطاب الإيديولوجي في وقت مبكر ... الوفاء للفكر الإنساني و العدالة الاجتماعية و الكرامة البشرية تحتم علينا التوقف من حين لآخر مساءلة أنفسنا بجرأة"7

جمالية " التقاطب ـالتنافر :

إن من الفنيات التي تضايف من خلالها الأدبي و الإيديولوجي جمالية فنية التقاطب و التنافر التي تحكم العلاقات الداخلية للنص ، وأنموذج ذلك جمالية العناوين ، إن جمالية العنوان تلخص مقصدية الرواية و منظورها السردي ، فالعنوان الأساسي بصيغة الجملة الاسمية "كتاب الأمير " بحضور رمزية الكتاب و إضافته إلى الأمير ، بما يشكل تقاطبا رمزيا يتمازج فيه عالم الأفكار " الكتاب " وعالم الأشخاص "الأمير " بما يمثله الأمير من رمزية حضارية و اجتماعية في الذاكرة الجماعية للمقاومة و الدولة والتصوف ...و العنوان يمثل علامة اشارية تقودنا إلى الاتجاهات المؤدية إلى عمق النص "مسالك أبواب الحديد " وهو العنوان الفرعي الذي يمثل خريطة طريق للرحلة في معمار النص ، مسالك _ أبواب الحديد (فتح المغلق) بما يغوي القارئ إلى فتوحات المحكي و دروب المسكوت عنه .

يفتح العنوان الأساسي بوابة النص بتقاطب لغوي يشكل دفتيها عنصرا العنوان " كتاب "_"الأمير " وكلاهما يتضايف فيه الأدبي و الإيديولوجي ، الكتاب كونه خطابا لغويا تداوليا و الأمير بوصفه شخصية أساسية في النص تمارس الخطاب ، كما أن العنوان الفرعي يختزل البنية السردية متمما دلالة العنوان ، كأن عالم كتاب الأمير الذي يشكله معمار النص تؤدي إليه مسالك السرد التي تفتح أبواب الحديد التاريخية نحو آفاق الدلالات و التأويل .

إن العنوان ينسجم مع عناوين الأجزاء المبوبة ، بما يحول النص جسما ماديا بعناوين فكرية و فلسفية تشكل غواية الرحلة ومتعة السفر في عمق الدلالة ، و تختزن البنية السردية للرواية ، اعتمد في بنائها " واسيني " على التقاطب و التنافر على مستوى اللغة و الدلالة لاختزال المكون السردي ، الذي يتردد بين النجاة و الضيق " باب المحن _ باب أقواس الحكمة – باب المسالك والمهالك " من خلال رمزية الأبواب " النجاة ، الفرح ، الخير ، النصر ..." خصوصا في المفهوم التراثي ، في مقابل " المحن ، المهالك ..."و يتوسط هذا التردد بين الحالين " أقواس الحكمة " للدلالة على النزعة العقلانية لرؤية السارد التي يستلهمها من رؤية الأمير .

إن هذه الفنية تكشف التحولات السردية التي تتردد بين مسالك النجاة و محن الضيق وتختزن هذه المعاني تنافر أجزاء العناوين

الوقفات	عنصر العنوان 1	عنصر العنوان 2
1	مرايا	الأوهام الضائعة
2	منزلة	الابتلاء الكبير
3	اليقين	مدارات
4	مسالك	الخيبة
5	منزلة التدوين	منزلة التدوين
6	الشقيقين	مواجع
7	مرايا	المهاوي الكبرى
8	المعابر	ضيق
9	الرؤيا / السبل	انطفاء/ضيق
10	سلطان	المجاهدة
11	الأحوال	فتنة
12	قاب قوسين	قاب قوسين

إن عناوين الوقفات السردية تساير الخط السردي الذي يختزل صراع المواقف و تحولات السرد ، بين خطين سرديين متنافرين ، " الأمير ، ديبوش " و " الأمير ، الاحتلال "

وضمن هذا الصراع يتردد تقاطب " الأمير ، ديبوش " بين النجاح و الفشل ، بين الانتصار و الانكسار ، بين الغاية و الخيبة ...

تنويع المستويات اللغوية :

إن " واسيني " يتميز بتنويع مستوياته اللغوية داخل إبداعاته ، وتعد رواية "كتاب الأمير " أحد هذه الإبداعات التي تجسدت فيها هذه الميزة ، مما جعل عمارة النص مجموعة من الطبقات اللغوية المختلفة ، تنبني فوق بعضها البعض لتشكيل بنية لغوية متناسقة ، وقد تم استعراض هذه المستويات في مبحث جمالية اللغة في رواية " كتاب الأمير " منها استعماله للغة الفن ، و اللغة العامية ، ... وأهمية البنية اللغوية كونها " المجسد للعلاقة بين القراءة و أنساقها ، وهي تتحكم في علاقة القارئ ببنية النص السردي و مكوناته الجمالية و الفنية لتؤسس لحوارية بين القارئ و النص "16

إن من أهم المستويات اللغوية التي تعبر عن قدرة "واسيني" في خرق النمط السردي العربي ، وتقديم فنيات جديدة تثري الإبداع الروائي ،هو استعماله دمج نصوص بلغة أجنبية داخل نصه ، وبهذا الكم الواسع ، إن اندماج النصوص

الفرنسية داخل البنية السردية و ضمن الخطاب بما يقدر بحوالي واحد وعشرين نصا ، بعضها كان يمتد لأسطر عديدة ، أو بشكل حوار ممتد ، ولم يلجأ الأديب إلى ترجمتها إلا مرة واحدة ...

إن النص الفرنسي كان في سياق البنية "أعطى الأمر للمشاة بتطويق المدينة قبل دخولها. on s ait jamais ces arabes sont pire les chacals laisser agir les zouaves d abord se sont des connaisseurs de ces régions accidentées faites les suivres par un bataillon de fantassinsقال شونقارنيه وهو ينبه ضباطه الذين توزعوا على أسوار المدينة التي كانت أبوابها إما محروقة أو بكل بساطة مفتوحة و مشرعة في بعض مداخل المدينة "17

إن لجوء " واسيني " إلى دمج الخطاب باللغة الفرنسية يخدم إلى جانب النزعة التاريخية للرواية ، جمالية تداخل النصوص من الناحية الفنية ، واستحضار حقيقة المحكي لغويا ، ولكن يحمل منظورا يريد إظهاره بلغته الأصلية كما قيل حقيقة ، كما في هذا المثال حيث تفوح من النص رائحة الكراهية و العنصرية ضد العرب. وهذه الفوبيا ضد العرب من إشكاليات المعاصر التي تنبني عليها مواقف إيديولوجية يسعى النص إلى كشفها. 18 .

الهوامش :

1 – إبراهيم عباس، الرواية المغاربية، تشكيل النص السردي في ضوء البعد الإيديولوجي "دار الرائد للكتاب الجزائر الجزائر،2005"، ص51.

2 - محمد تحريشي، المستويات اللغوية في الخطاب السردي عند واسيني الأعرج "مجلة عمان، عدد 163 كانون الثاني2009"،ص39.

3 - واسيني الأعرج، كتاب الأمير"منشورات في الفضاء الحر، الجزائر، الجزائر، 2004»، ص 126.

4 – واسيني الأعرج، مرجع سابق، ص346.

5 – المرجع نفسه، ص 408.

6 – المرجع نفسه، ص503.

7 – واسيني الأعرج، الإيديولوجية و الإيديولوجيا، جريدة الخبر، عدد 17-07-2008.

8- أحمد يوسف، التضايف الأدبي و الإيديولوجي ، تأملات سيميائية في رواية الأمير،ملتقى الأدبي و الإيديولوجي في رواية التسعينات، ص 242

9- واسيني الأعرج ، الإيديولوجية و الايدولوجيا، جريدة الخبر اليومية، عدد 2007/07/17.

10- أحمد يوسف ، التضايف الأدبي و الإيديولوجي ، تأملات سيميائية في رواية الأمير،ملتقى الأدبي و الإيديولوجي في رواية التسعينات، ص 246-247.

11- إبراهيم العباس، الرواية المغاربية في ضوء البعد الإيديولوجي، ص 336.

12- واسيني الأعرج، كتاب الأمير، ص 474-475.

13- واسيني الأعرج، كتاب الأمير، ص 406-407.[1]

14 - المرجع نفسه ، ص 503-504.

15- واسيني الأعرج، كتاب الأمير، ص 79.

16- واسيني الأعرج، الاديولوجية و الايدولوجيا، جريدة الخبر ، العدد 2008./07/17

17 - محمد تحريشي ، المستويات اللغوية في الخطاب السردي عند واسيني الأعرج،مجلة عمان ،عدد 163، كانون الثاني 2009، ص 39.

18 - واسيني الأعرج، كتاب الأمير، ص 161.